

السرائر المستقيم

كلّ حبة من تراب بلادي قضيةٌ أحبها، أغار عليها وأجاهد من أجلها. كلّ إنسان من بني قومي أخٌ أحبّه، يسعدني إذا ارتفع وتطور ويحزنني إذا انتكس وارتكس. كلّ فرد من بني آدم رفيق مصير أرافقه، يفرحني إذا صدق ووفى ويشقيني إذا كذب وخان.

وأنت يا من ظهرت من نور الله الشعشعاني،

أيها العقل الكلي

يا علة العلل الروحانية والجسمانية

يا هيوولي العالمين الأعلى والأدنى

أيها السرائر المستقيم المؤيد بروح القدس

يا من عقولنا البشرية قبساً من شمسك الكلية

أنت الذي زرعت في جبال نفوسنا منذ بدء التكوين

كل حقائق هذا الوجود وقوانينه الطبيعية

فالحقائق كلها منطبعة في غرائز عقولنا

وما طمسها وأخفى نورها إلا سوء أعمالنا ومعتقداتنا

فظنناها غير موجودة وهي موجودة بالقوة

وتحتاج إلى الصقل بحسن المعتقد وحسن العمل

لتغدو موجودة بالفعل.

أنت الذي علمتنا أن العقل هو الوقوف عند مقادير الأشياء قولاً وعملاً. وأنه النظر في عواقب الأمور ومراقبة جميع الشهوات ما ظهر منها وما بطن.

قال النبي الكريم: ما اكتسب ابن آدم أفضل من عقل يهديه الى هدى أو يردده عن ردى. وقال لقمان الحكيم: العقل وزيرٌ رشيدٌ وظهيرٌ سعيد، من أطاعه أنجاه ومن عصاه أرداه. والعقضياءُ مشعٌ لو صوّر لأضاء معه الليل ولو صوّر الجهل لأظلم معه النهار.

وقال الشاعر المتنبي:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى الى شرف من الإنسان

خاطب الله تعالى العقل خطاباً معنوياً في زمن معنوي فقال:

وعزتي وجلالي وارتفاعي في أعلى علو مكاني ما خلقت شيئاً أفضل منك. من أعطاك فقد أعطاني ومن عصاك فقد عصاني. بك تبلغ المنازل العالية.

وفي مسلك العقلاء أن الصحيح ما صح في العقل وأن للعقل قوانين هي قوانين علم المنطق وليس الخواطر والظنون والأوهام. فانه سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وصف الضالين بقوله: إن يتَّبِعُونَ إلا الظن وما تهوى الأنفس. والنبي الكريم "صلعم" قال: ثلاث مهلكات يأخذن بالمرء الى جهنم وبئس المصير: شحٌ مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه.

وكان رسول الله إذا بلغه عن إنسان عبادة قال: كيف عقله؟ فإن قالوا عاقل قال: ما أخلقه أن يبلغ جنة المأوى. وإن قالوا ليس بعاقل قال: ما أخلقه أن لا يبلغ. وقال الإمام الحسين: ثلاثةٌ تذهب ضياعاً: دينٌ بلا عقل ومالٌ بلا بذل وعشقٌ بلا وصال. وها نحن نقول اليوم وفي هذا الزمن الرديء الذي يمشي على رأسه ولا يمشي على قدميه، زمن الظلمة الشفافة التي تتجلبب بجلباب العلم حتى يظن من يراها أنها تنتسب الى معدنه وهي منه براء لأنها اكتفت بزخرفه دون جوهره، وبمظاهره التي تحاكي الشهوات وتستثير الغرائز دون اللباب التي تحاكي نواميس العقل وقوانين المنطق.

هنا نحن نقول اليوم:

لكل داء دواء يستطب به إلا الجهالة أعيت من يداويها

فالعقل يضلّ عقله بمصاحبة الجاهل فالفساد أشد التحاماً بالطباع من العقل لأن كل شيء يجري باتجاه الأسفل أسهل على الطباع من الشيء الذي يسمو وينهد الى العلى والعزة والرفعة.

فنحن نقول للعقلاء أولي الألباب إياكم ومعاشرة الجهلة وإن كانوا أصحاب جاه وجمال وثروة ومظاهر براقة. وذلك لأن الجهل يغري الحواس الظاهرة بنعيم كاذب ويغري العواطف الجياشة بلذائذ مصطنعة كسراب يحسبه الضمآن ماءً حتى إذا جاءه وارداً لم يجد إلا ظنونه وأوهامه.

فالعقل يفضل خشونة العيش بصحة العقلاء على لين العيش ورغده بصحبة الجهلاء. وذلك لأن صحة العقول بالمعارف اليقينية والفضائل البرهانية التي تجعل الإنسان متواصلاً مع العقل الكلي يتقبل فيض النور الشعشعاني الإلهي هي التي تجعله يعيش في قلب الغبطة التي لا عين رأت ولا أذن سمعت وتجعل الغبطة تعيش في قلبه.

سئل أفلاطون ما هي اللذة الحقيقية التي تملك صفة الثبوت والديمومة فأجاب: إنها لذة المعرفة لأنها اللذة الوحيدة التي لا تتقلب على نفسها ولا يولد ضدها من أحشائها.

ونحن أيها الأخوة لقبنا بنو معروف لأننا أبناء المعرفة والعرفان. فالمعرفة سعادتنا وبها تطورنا وارتقاؤنا وتعريجتنا الروحي من منزلة الى منزلة أعلى حتى بلوغ سدرة المنتهى حيث جنة المأوى فاعتبروا يا أولي الألباب.

كمال سري الدين

